

تاريخ الاستلام: 2025/08/07 تاريخ القبول: 2025/11/26 تاريخ النشر: 2025/12/25

آمال ميساوي *

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة تونس (تونس)

مخبر البحث: تاريخ اقتصاد المتوسط ومجتمعاته

Email: amelmessaoui50@gmail.com

الملخص :

تطرح الدراسة موضوع المراهقين صلب الفضاء المدرسي والأهمية السوسيولوجية لهذه المسألة في فهم وتفسير جانب من التوازنات الاجتماعية والثقافية في المجتمع التونسي. ويركز البحث على دراسة أنماط المعيش صلب مؤسسات التعليم الثانوي باعتبارها حلقة الوصل بين مرحلة الطفولة ومرحلة النضج والشباب في حياة التلميذ. حيث تبدو العلاقة واضحة بين المعيش والفضاء الذي يؤدي، هنا، دور الحاوية للأفعال والممارسات من خلال تجسيد وبلورة مجموعة من التملات الاجتماعية التي تمهيك السلوك اليومي، لكن وبالنظر إلى تنوع المشهد الاجتماعي، فإن المعيش سيكون بالضرورة متعدد أي أنه يعكس هذه الاختلافات في المواقع والممارسات والانتظارات والأدوار التي تجعل الأفراد في حاجة إلى بناء استراتيجيات تكيف مع الواقع وخلق توازنات جديدة لمواجهة المخاطر التي قد تهدد تعايشهم. ومن هذا المنطلق فإن أنماط المعيش صلب الفضاء المدرسي، والتي تحوكمها أشكال متعددة من القواعد والضوابط المنظمة للحياة المدرسية وأيضا القيم المجتمعية والاستعدادات الذاتية للأطراف المتداخلة في العملية التعليمية و التربوية، غالبا ما تصطدم بنزوع التلميذ المراهق إلى إثبات الذات وتأكيد الاستقلالية من خلال تبني نمط عيش يتماشى مع الثقافة الشبابية.

الكلمات المفتاحية: المراهقة، الفضاء المدرسي، التغير، أنماط المعيش.

Abstract:

The study raises the subject of adolescents within the school space and the sociological importance of this issue in understanding and interpreting an aspect of the social and cultural balances in Tunisian society. The research focuses on studying lifestyles within secondary education institutions, as these are the link between childhood, maturity and youth in a student's life. The relationship seems clear between living and space, which here plays the role of a container for actions and practices by embodying and crystallizing a set of social representations that structure daily behavior. However, given the diversity of the social scene, living will necessarily be multiple, meaning that it reflects these differences in locations, practices, expectations and the roles that make individuals need to build strategies to adapt with reality and create new balances to confront the risks that may threaten their coexistence.

From this standpoint, lifestyles within the school space, which are governed by multiple forms of rules and controls regulating school life, as well as societal values and self-preparations of the actors involved in the educational process, often collide with the tendency of the adolescent pupil to prove oneself and assert autonomy by adopting a lifestyle in line with youth culture.

Keywords: adolescence, school space, change, lifestyles.

* المؤلف المرسل

تقديم

لن بناء المجتمع وتشكله يتم ضمن سيرورة متواصلة من التغير والتطور الذي عاشته ولازالت بصده شعوب العالم. وهذا التشكى مرتبط شديد الارتباط ببناء الانسان وبمجموع المؤسسات التي يحتاجها الفرد لتأثيث وجوده ضمن ديناميكية التغير الاجتماعي الذي يعتبر "نتيجة عمل المجتمع بمختلف مكوناته لضمان وجوده واستمراره في علاقة بمحيطه الطبيعي" (بن سالم بلقاسم، 1993: 41)

ويحيلنا الحديث عن التغيرات الاجتماعية إلى معاني "التحول في البناء الاجتماعي والأدوار وقيم الضبط الاجتماعي. وقد يكون هذا التحول إيجابيا أو سلبيا" (عبد الغني عماد، 2006: 191)، ويصف مصطلح التغير الاجتماعي "الواقع كما هو كائن فعلا، وليس كما يجب أن يكون". (عبد الغني عماد، 2006: 191) في حين ان الحديث عن التغير الثقافي يحيلنا على "ما يطرأ من تبدل في جانبي الثقافة سواء أكان ماديا أو معنويا. إنه تغير يحدث في جميع نواحي المجتمع (اللغة، الفن، العادات والتقاليد، تبدل أولويات وسلم القيم، التكنولوجيا...). وعلى هذا يصبح التغير الاجتماعي جزءا من التغير الثقافي..." (عبد الغني عماد، 2006: 192)

والثقافة هي أساسا تعبير عن السلوك الاجتماعي البشري بكل ما فيه من عيش مشترك وما يعنيه من تعايش بين التكامل والاختلاف من جهة وبين التعاون والتناقض من جهة أخرى. فالثقافة هي بنية نفسية وذهنية واجتماعية وتاريخية تسمح للفرد بأن يحقق ذاته وأن يراكم تجاربه المكتسبة من المعيش الانساني اليومي ومن العلاقة بالطبيعة وهي علاقة ثقافية. (وناس المنصف، 2015).

بناء على ما تقدم يمكن القول بأن المؤسسة التعليمية التونسية اليوم تواجه مجموعة من التحديات التربوية والاجتماعية والثقافية والعلائقية في ظل ضغوط التحديات الخارجية والداخلية وخاصة مدى قدرتها على ملائمة مناهجها التعليمية لمقتضيات البناء المستقبلي للفرد والمجتمع. ومن هذا المنطلق يتأق تركيز اهتمامنا

على مرحلة التعليم الثانوي باعتبار محورية دورها في تشكيل شخصية الفاعل الاجتماعي، فهي مجال تتمفصل فيه مراحل الطفولة والمراهقة والشباب، وبالتالي " سيكون التعليم الثانوي مجال تعلم ما يجب ان تكون عليه الثقافة الحقة." (موران إدغار، وناس المنصف، 2020: 105). فالنظام المدرسي يمثل بالنسبة للتلميذ إطار للارتقاء الاجتماعي وضمان لمستقبل أفضل، ولكن المدرسة، " ليست فقط فضاء لتعلم الأشياء، المعارف، التقنيات، إلخ...، إنها كذلك مؤسسة لإصدار الحقوق ومنح الطموحات في نفس الوقت." (Bourdieu Pierre, 1984 : 147)

الإشكالية العامة

المدرسة هي الفضاء السني يحتوي "التجربة المدرسية" (François Dubet, Martuccelli 1996: Danilo) التي يعيشها التلميذ والتي غالبا ما يكون لها الوقع الأثقل في تشكيل شخصيته واستبطان خصوصيات الفضاء الاجتماعي. ذلك ان التلميذ يقضي القسم الأكبر من وقته ضمن حقل مدرسي يتم في اطاره تكوين فاعل اجتماعي على امتداد الساعات والسنوات المقضاة في التعليم. حيث تعمل المدرسة على صقل شخصية هذا الفاعل واكسابه مجموع المعارف والقواعد والممارسات التي يقرها المجتمع ويتبنى النظام التربوي عملية تمريرها وترسيخها. ويحيل الحديث عن الفضاء المدرسي بالضرورة على مجموع الأنساق المتفاعلة فيما بينها والمكونة لهذا الحقل. و" التفكير وفق مصطلح الحقل يعني التفكير علائقيا، فما يوجد في العالم الاجتماعي هو في الحقيقة عوالم اجتماعية صغيرة أو حقول عديدة، يتمتع كل منها باستقلالية نسبية، وبنظام معين من القواعد والتنظيمات وبمنطق محدد وبنوع معين من العلاقات." (عبد الغني عماد، 2006: 99). إذا، ثمة علاقة تبادلية بين الفضاء والمعيش، حيث يملئ المجال المدرسي حاوية لمجموع الأفعال والممارسات والقواعد والضوابط التي تهيكّل معيش الأفراد وتحدد

دور وموقع كل الأطراف المتداخلة في الشأن المدرسي. الأمر الذي يدعو إلى التساؤل عن نمط العلاقات القائمة بين التلميذ المراهق وبين مجموع مكونات الشأن الاجتماعي والدراسي ومختلف الاستراتيجيات التي ينتهجها أثناء سيرورة تشكيل الهوية الذاتية والتحرر من مكبلات المحيط الاجتماعي والاسري والثقافي.

وبناء على ما تقدم، يمكن القول بأن الفضاء المدرسي ظاهرة مركبة من حيث أنه يعكس صورة مصغرة للمجتمع، ومن حيث كونه مساحة جامعة، تحوي من بين ما تحويه، اختلالات بنيوية عميقة ومشاكل متعددة الأبعاد. ويمثل المجتمع هنا "نسق من العلاقات المتداخلة التي يرتبط بها الأفراد بعضهم ببعض... وتتميز... بصفات مشتركة منها أن ثمة بنية من العلاقات الاجتماعية تنتظم أعضائها وتنظمهم وفقا لتوجهات ثقافية فريدة ومتميزة" (غدنز انتوني، 2005: 79).

ويمكن القول، بل إن نظام التعليم في تونس، اليوم، مطالب بالاشتغال على تحقيق التكامل بين الأبعاد الاجتماعية والنفسية والبيداغوجية، باعتبارها أحد الركائز الأساسية لبلوغ الأهداف التعليمية والتربوية، وخاصة منها اندماج التلميذ في الفضاء المدرسي بصفته الفاعل الأساسي الذي تتبلور من خلاله وحوله سيرورة "التجربة المدرسية"، ومن ثمة نجاح أو فشل العملية التعليمية برمتها. لذلك فإن الاشتغال على خلق مناخ مدرسي متوازن هو أحد مفاتيح إدارة مختلف الممارسات السلوكية المعطاة للعملية التعليمية، هذا من ناحية، ولكنه في الآن ذاته اشتغال على التجربة المدرسية باعتبارها تجربة اجتماعية جامعة، يعيش خلالها التلميذ المراهق كل أطوار العلاقات بين الفاعلين وتملاتهم وأشكال التفاعل فيما بينهم ومستويات التنظيم الدراسي والإداري المشكلة للفضاء المدرسي.

هذا المسار الذي يتشكّل خلاله المراهق كفرد فاعل يحمل رؤيته لذاته وللعالم من حوله ويتموضع ضمن ثقافة جيلية أو ثقافة للشباب، يحيل على مفهوم "الهابيتوس" عند "بيير بورديو" والذي يسمح للفرد باكتساب راس مال "من

المعتقدات والخبرات والمهارات التي تمكنه من اللعب عن طريق توليد الاستراتيجيات الموجهة أو اتخاذ المواقف المتميزة أو استثمار الرهانات النوعية." (أنصار بيار، 1992، 36).

لن ما يمكن تأكيده اليوم هو أهمية الجانب الاجتماعي والنفسي والتفاعلي في تحليل إشكالية الفضاء المدرسي وأنماط معيش التلميذ المراهق، وخطورة تأثيرات اهمال التمكن في هذا المبحث على مستقبل المجتمع التونسي وأجياله الناشئة. خصوصا في إطار التيارات الثقافية الوافدة نتيجة هيمنة تكنولوجيا الاتصال الحديثة وتغلغل الثقافة الافتراضية في مختلف مفاصل المعيش اليومي للأفراد، وانخراط المراهقين في منطق الممارسات اليومية التي تتحدد وفق ما تفرضه وسائل الاتصال والمعلومات من ثقافة استهلاكية على مستوى الخطاب، اللباس، الأكل، القيم والسلوكيات... داخل الفضاء المدرسي وخارجه. ومن هذا المنطلق ارتأينا طرح التساؤل الإشكالي التالي:

هل يجوز القول بأن أنماط المعيش التي يتبناها التلميذ المراهق تعكس لا فقط أزمة الفضاء المدرسي وإنما أيضا واقع البيئة المجتمعية الحاضنة لهذه الفئة؟
فرضية البحث

كل ما كان الفضاء المدرسي ضعيف القدرة على احتواء التلميذ المراهق كلما كانت أنماط المعيش التي يتبناها هذا الأخير أكثر ميلا نحو التمرد والعزلة المجتمعية. دوافع البحث وأهميته

إن الأهمية التي تكتسبها المراهقة تعطي شرعية علمية للبحث في الفضاء المدرسي وأنماط معيش التلميذ المراهق، وذلك لما تحمله هذه المرحلة من معاني الاقتراب من النضج وتحمل المسؤوليات الاجتماعية واقترب هذا الاقتراب بمجموعة من التغيرات النفسية والجسدية والثقافية. هذا إضافة إلى ما تعرفه مختلف

المؤسسات الاجتماعية في المجتمع التونسي من تغيرات طبعت بشكل بارز المعيش اليومي للأفراد والذي أصبحت سمته البارزة الصراع بين قيم وضوابط ومعايير متأصلة في المجتمع وأخرى جديدة أوجدتها سياقات التغير الاجتماعي والثقافي. هذا الصراع يفترض الانتهاء الى خلق استراتيجيات توافقية تسمح بالتعايش والاندماج ضمن الفضاء الاجتماعي، وهذا ما يدعونا الى تسليط الاهتمام على دور مختلف المؤسسات التشئوية والتعليمية في المجتمع ومسؤولية الأطراف الفاعلة صليها.

منهجية البحث وتقنياته

" يتبنى علماء الاجتماع توجهها عمليا (براغماتيا) في أغلب الأحوال عندما يبدأون اختيارهم لطرق البحث....وقد يتضمن هذا الاختيار إثارةهم لطرق البحث التي تجسروا هوة التقسيم القائم بين البيانات الكمية والبيانات الكيفية أو التقسيم القائم بين البيانات الأولية والبيانات الثانوية." (تشيرتون ميل، براون آن، 2012: 432). ولكن اعتماد طريقة واحدة في البحث ينتج عنه مكان ضعف يمكن تجاوزها من خلال تنوع طرق الدراسة. حيث يمكن اتباع "منهجية متعددة المستويات تجمع في الآن نفسه بين النظري والتطبيقي، بين الكمي والكيفي باعتبارهما بعدين منهجين متكاملين. فيمكن التأكد من نتائج الدراسة الكيفية استنادا على التحليل الكمي والعكس صحيح أيضا." (Raymond Boudon, 1980: 86-122). وسعيا منا للاقترب قدر الإمكان من هذا التكامل المنهجي توصلنا كل من تقنيات البحث الكمي-الاستبيان-وتقنيات البحث الكيفي -الملاحظة والمقابلة-.

وتجدر الإشارة إلى أننا اعتمدنا في دراستنا على نموذجين من الاستمارة:

- استمارة موجهة للتلاميذ،
- استمارة موجهة للإطار التربوي.

وقد شملت المقابلات – نصف الموجهة- التي تسق لنا إنجازها أربعة إطارات تربوية، وتراوحت فترة انجاز هذه المقابلات بين شهري أفريل وماي من السنة الدراسية 2017-2018.

وبناء على ما تقدم فقد اعتمدنا كإطار للمعينة –بمعنى الطريقة التي تم استخدامها في أخذ العينة- السجلات المدرسية للتلاميذ واحصائيات الأساتذة والإطار التربوي وقد حرصنا على أن تتضمن العينة قدر الإمكان خصائص أفراد إطار العينة من ناحية مثلا عدد الإناث والذكور، المستوى التعليمي، المهنة، ... وتجدر الإشارة إلى أن العينة التي تم اعتمادها في البحث هي ذات تمثيلية نسبية " فلا وجود لعينة حاسمة التمثيلية ومطلقة في العلوم الانسانية." (وناس المنصف، 2018) واستناد لما تقدم تكونت العينة الكمية من 126 مبحوثا موزعة على ثلاث فئات كما هو مبين بالجدول التالي:

جدول عدد(01): توزيع عينة البحث

مفردات العينة				
	النسبة المئوية %	المجموع	الذكور	الإناث
التلاميذ	67.46	85	39	46
الأساتذة	21.43	27	14	13
الأطر الإدارية	11.11	14	07	07
المجموع	100	126	60	66

المصدر: الدراسة الميدانية

عرض نتائج الدراسة الميدانية وتحليلها

1 معيش التلميذ المراهق صلب الفضاء المدرسي

1-1 الممارسات السلوكية المضمنة بكراسات المتابعة اليومية للتلاميذ

في هذا الإطار، واعتمادا على تقنية الملاحظة غير المباشرة، حاولنا رصد مجموع الممارسات السلوكية للتلاميذ المراهقين وما يقابلها من ردود تأديبية تعكس نمط النظام التربوي والإداري المعتمد في تسيير الحياة المدرسية. وقد سعينا إلى القيام بعملية جرد ودراسة لكراس المتابعة اليومية للتلاميذ - بكل من المعهد الثانوي باب الخضراء ومعهد شارع 09 أفريل 1938- حيث تم تسجيل إقرار (318) عقوبة خلال الفترة الممتدة من 17 أكتوبر 2017 إلى 03 أفريل 2018 من السنة الدراسية 2017-2018. أي أنه بالكاد يمكن الحديث عن ثلاثي ونصف إذا حذفنا العطل المدرسية والراحة الأسبوعية، وهو ما يجعل معدل العقوبات مرتفع جدا مقارنة مع الفترة الزمنية التي اقترنت فيها، وبذلك يتحول الفضاء المدرسي والنظام التأديبي المنظم له إلى أحد المسببات الرئيسية لمشاكل الاندماج لدى التلاميذ المراهقين، حيث تساهم "الأنظمة الداخلية للمؤسسات التربوية المفتقدة في كثير من الأحيان إلى المرونة المطلوبة في نفور التلاميذ من المدرسة أو اقصائهم من التعليم." (وزارة التربية، 2016: 58)

لاحظنا تكرار عقوبة الرفت المؤقت (193) مرة منها (137) أسندت إلى الذكور من التلاميذ ثم عقوبة الإنذار بما يعادل (75) تكرارا منها (48) أسندت للذكور، كما سجلنا تكرار الإحالة على مجلس التأديب بمعدل (42) تكرارا (26) منهم ذكور، أما عقوبة الرفت النهائي فقد جاءت في حق (08) من التلاميذ الذكور. كما هو مبين بالجدول الموالي:

جدول عدد(02): توزع أنواع العقوبات وتكرارها حسب النوع					
الجنس	أنواع العقوبات وتكرارها				المجموع
	انذار	رفت مؤقت	رفت نهائي	إحالة على المجلس	
ذكور	48	137	8	26	219
إناث	27	56	0	16	99
المجموع	75	193	8	42	318

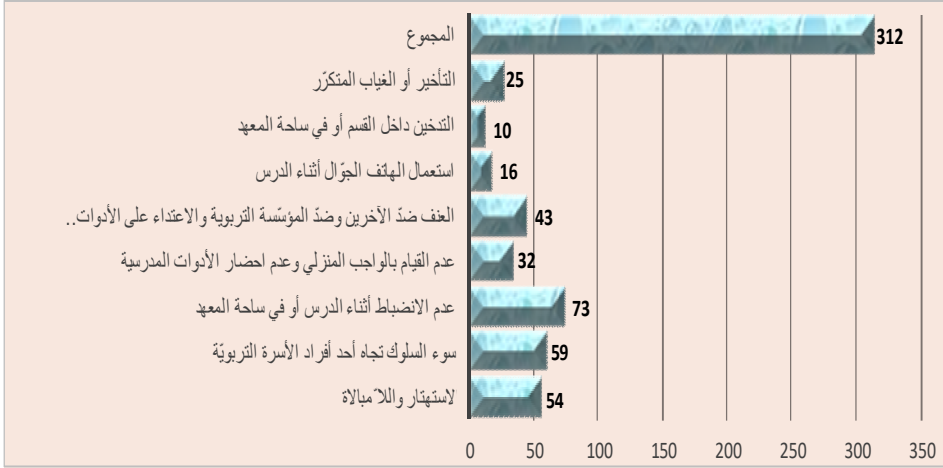
المصدر: الدراسة الميدانية.

أمكن لنا، من خلال دراسة كراسات المتابعة اليومية، تبين حزمة من مشاكل التعايش ومن الصعوبات البيداغوجية والعلائقية التي تمظهرت من خلال الممارسات السلوكية للتلاميذ. منها عدم الانضباط، أثناء الدرس أو في ساحة المعهد، بمعدل (73) تكرارا، الأمر الذي يحيلنا على وجود علاقة داخلية متوترة بين مختلف الأطراف يدلى عليها سوء السلوك تجاه أفراد الأسرة التربوية بمعدل (59) تكرارا وأيضا تواتر سلوك الاستهتار واللامبالاة بمعدل (54) تكرارا ثم العنف ضد الآخرين وضد المؤسسة التربوية والاعتداء على الأدوات والتجهيزات بمعدل (43) تكرارا.

وبالإضافة الى ما تقدم فلن مشاكل التعايش وعدم القدرة على مسيطرة نسق المعيش المدرسي تبرز من خلال تواتر عدم قيام التلاميذ بالواجب المنزلي وعدم إحضارهم الأدوات المدرسية وذلك بمعدل (32) تكرارا ويضاف إلى ذلك التأخير أو الغياب المتكرر بمعدل (25) تكرارا وتعتمد استعمال الهاتف الجوال أثناء الدرس بمعدل (16) تواترا وأخيرا التدخين داخل القسم أو في ساحة المعهد وتكرر هذا السلوك المنافي لقواعد الحياة المدرسية (10) مرات.

رسم بياني عدد (01): معدل تكرار الممارسات السلوكية المضمنة بكراس المتابعة اليومية

للتلاميذ



المصدر: الدراسة الميدانية.

2-1 الفضاء الداخلي للمؤسسة التعليمية

بالإضافة الى ما سبق، اعتمدنا الملاحظة المباشرة لرصد سلوكيات التلاميذ داخل المعهد والجمالية العامة للمؤسسة خاصة النظافة، جمالية المكان وصيانه، توفر الأنشطة الثقافية... حيث أن "الفضاء المدرسي ببنائاته وتجهيزاته ووسائله يلعب دورا حاسما في إنجاح الفعل التعليمي أو فشله. إلا أن الفضاء المدرسي لا يزال يمثل نقطة ضعف رغم... أهمية الدور الموكل إليه في بناء الفعل التعليمي التربوي ودعمه وتعزيزه،... إن اهتراء البنية التحتية في المؤسسات التربوية وغياب الحماية اللازمة للتجهيزات مع تقادم الوسائل التربوية عوامل تعوق حسن سير العملية التربوية." (وزارة التربية، 2016: 55-56) وليس أدل على صحة القول من مجموع الصور التي تم التقاطها والمعبرة عن حالة من الهوان في الاشتغال على خلق فضاء داخلي جاذب ومحفز على الممارسات السلوكية الايجابية.

لن عدم تركيز حاويات بالمعهد حول ساحة العلم إلى مكان تتكس فيه بقايا الطعام والفضلات الورقية وهي وضعية ليست ببعيدة عن الحالة "اليومية" للمكان

المخلف بغياب النظافة وانعدام الجمالية بدليل الاهمال المتواصل لتشذيب الشجيرات القليلة بالمكان واقتلاع الأعشاب الطفيلية التي تركت على حالها الى ان يبست وتراكمت في مشهد خادش لرمزية المكان وللقيم التي يتم تمريرها وترسيخها لدى التلاميذ. زد على ذلك جانب الترميم والصيانة الذي يكاد يكون منعدما، بدليل الصورة المأخوذة من الممر الم ، مقابل تماما لمكتب الم ، راقبة اليومية للتلاميذ والتي تعكس حالة البنية التحتية بالمعهد من ناحية تصليح الارضية وإعادة تبليطها ثم أيضا النظافة والتشبيب...

صورة عدد (1): ساحة العلم وأحد الممرات داخل المعهد الثانوي باب الخضراء



المصدر: الدراسة الميدانية.

وعلاوة على ما تقدم لاحظنا أيضا الغياب الكلي لأي شكل من أشكال الأنشطة الثقافية أ و الرياضية ما عدى تلك المرتبطة بحصص التدريس كما لن "تطبيق

الجوانب التنشيطية- التطبيقية في الدرس تبقى هي الأخرى رهينة اجتهادات المربين"، حسب افادة القيم العام بمعهد شارع 09 أفريل 1938، حيث تؤكد وزارة التربية أن ثمة "ضعف مسجل على مستوى النشاط الثقافي والرياضي بالمؤسسات التربوية...، وعدم تفعيل المناشير والمذكرات المتعلقة بانفتاح المدرسة على المحيط." (وزارة التربية، 2016: 55-56)

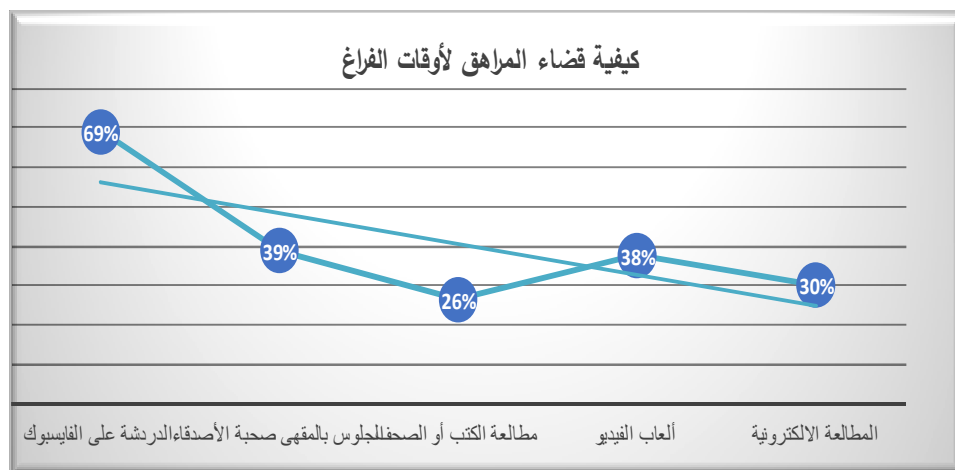
ويمكن في هذا السياق، ان نستنتج أيضا "غياب البعد التربوي والتأطيري في المنظومة التربوية الحالية نظرا لتقص دور الإطار المسير-قيم، مرشد تربوي وبيداغوجي...- كفاعل تربوي في المنظومة التربوية والمتصل أساسا ببناء كفاية تربوية وسلوكية للتلميذ تمثي امتداد للكفاية التعليمية التي يقوم بها المدرس." ويضاف الى ذلك "غياب الفضاءات الترفيهية والثقافية التي تستوعب التلميذ إلى جانب عدم الإحاطة الاجتماعية والنفسية بالتلميذ المراهق داخل المعهد وخارجه"

2- أنماط المعيش ومشاكل التعايش لدى التلميذ المراهق: تحليل نتائج الاستمارات الخاصة بالتلاميذ

"مع ان المراهقة هي فترة نمو وإمكانات هائلة فإنها أيضا فترة محفوفة بمخاطر كبيرة تمارس فيها السياقات الاجتماعية تأثيرات قوية." (منظمة الصحة العالمية، 2018). ومنها أفراد الأسرة، المدرسين، جماعة الرفاق، الوسائط التكنولوجية والتي تمارس على المراهقين ضغوط واغراءات بالتجربة خاصة من خلال الإعلانات المصورة. فالصورة تمثل سلطة رمزية ومجال لتشكيل أذواق الأفراد وبلورة قيمهم، ومن ثمة هيمنة القوى الفاعلة في المجال التقني والتكنولوجي على آليات العنف الرمزي الذي "يمارس بتواطؤ ضمني من قبل الذين يتأثرون به ومن قبل الذين يضعونه باعتبار انهم جميعا يمارسونه من غير وعي" (Bourdieu Pierre, 1996: 16).

وقد سجلنا من خلال الدراسة الميدانية هيمنة الفضاء الافتراضي على أوقات الفراغ التي يقضيها التلاميذ في الدردشة على صفحات الفيسبوك بنسبة (69%) وممارسة ألعاب الفيديو بنسبة (38%) ومجالسة الأصدقاء بالمقهى بنسبة (39%) مقابل وجود اتجاه ضعيف نحو قضاء أوقات الفراغ في مطالعة الكتب أو الصحف بنسبة (26%) فقط و (30%) يهتمون بالمطالعة الالكترونية.

وتعكس هذه النتائج واقع القطيعة بين المراهق وبين المكونات الثقافية للمجتمع كما يمكن أن تعكس رفضه للنمط الثقافي والفكري والمعيشي السائد والاتجاه إلى اعتماد بدائل يمكن ان يحقق من خلالها نوعا من التفرد والاستقلالية.
رسم بياني عدد:(02): كيفية قضاء المراهق لأوقات الفراغ.

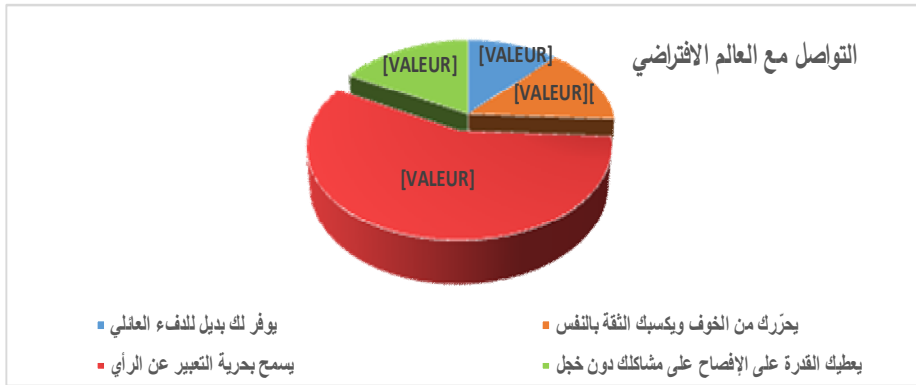


المصدر: الدراسة الميدانية.

وفي الإطار ذاته يعتبر (77%) من التلاميذ أن التواصل مع العالم الافتراضي يسمح لهم بحرية التعبير عن الرأي كما يعطيهم القدرة على الإفصاح عن مشاكلهم دون خجل بحسب (23%) منهم هذا علاوة على أن الفضاء الافتراضي يمثل فرصة للتواصل والتحرر من الخوف واكتساب الثقة بالنفس بحسب (19%) من مفردات العينة ويوفر أحيانا بديلا للدفع العائلي وفقا لرأي (16%) منهم. ويمكن أن نقرأ من

خلال هذه النتيجة " أن الفرد التونسي يؤمن بالعائلة ويعتبرها جزء من معيشه اليومي ومرجعا من مراجع حياته توجه سلوكه وتبلور اختياراته جزئيا أو كليا...فتحقيق الذات وتأكيد الاختيار الذاتي والاتجاه نحو كل القيم الفردية لا يتناقض إذا مع الأسرة." (وناس المنصف ،2010: 270) التي تبقى وبشكل جوهري "قيمة مرجعية على الرغم مما خضعت له السلوكيات الاجتماعية من تبدلات واضحة بحكم تأثيرات النموذج المجتمعي الغربي وغير الأخلاق والسلوكيات في العالم بأسره." (وناس المنصف ،2010: 271)

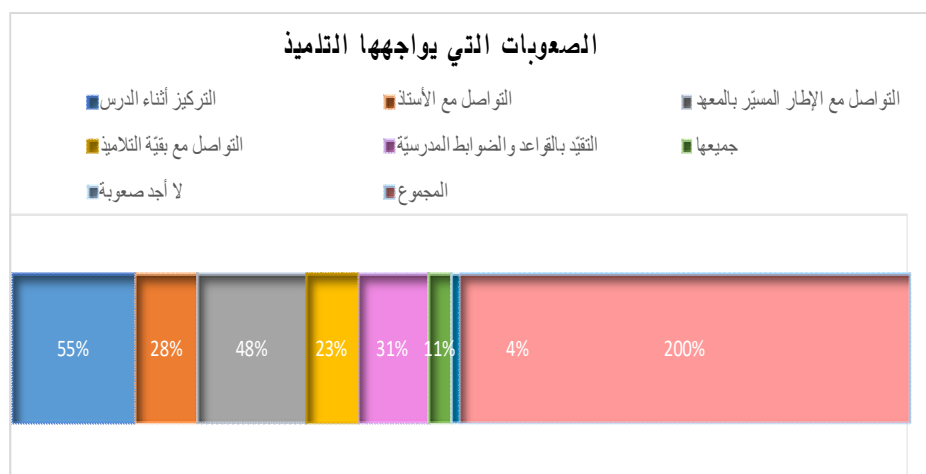
رسم بياني عدد:(03):



المصدر: الدراسة الميدانية.

ان قراءة النتائج الميدانية تبين ان القدرة على التواصل تعتبر من أوكذ مشاكل التعايش لدى التلميذ المراهق صلب الفضاء المدرسي بنسبة (99%) من مجموع الإجابات التي تنقسم الى (48%) يجدون صعوبة في التواصل مع الإطار المسر بالمعهد، (28%) من الإجابات تعكس مشاكل في التواصل مع الأستاذ و (23%) يجدون صعوبة في التواصل مع بقية التلاميذ. وبالإضافة الى ما تقدم نجد ان نسبة (31%) من الإجابات تدل على صعوبة التقيد بالقواعد والضوابط المدرسية لدى

التلميذ كما ان (11%) من إجابات التلاميذ تدل على مواجهتهم لكل هذه الصعوبات مجتمعة مقابل (4%) فقط اجابوا بأنهم لا يجدون صعوبة.
رسم بياني عدد:(04)



المصدر: الدراسة الميدانية.

تحيلنا هذه النتائج على الضعف الحاصل على مستوى ديناميكية المناهج التربوية والتعليمية وإتسامها بالجمود والعجز عن مواكبة سيرورة التطور التعليمي والتربوي والثقافي المتسارع. ويدل على ذلك حالة التنافر وعدم التناسب بين النماذج البيداغوجية المعتمدة وبين الاحتياجات التوجيهية والتواصلية لدى التلميذ المراهق. ويساهم هذا القصور في الحد من قدرة المراهق على الاندماج والتعايش وأيضاً في تعميق الهوة الفاصلة بين اكتساب المعارف وكيفية توظيفها في الممارسات اليومية صلب الفضاء المدرسي والمجتمعي. وفي هذا السياق يذهب (ج.ع)، إطار تربوي بمعهد شارع 9 افريل 1938، إلى القول بأن "الفضاء المدرسي بالنسبة الى المراهق أصبح شبه سجن مفتوح مقف بالدخول والخروج...وهذا ناتج أساساً عن التناقضات بين المؤسسة التربوية والفضاء الخارجي، برامج لا تتطابق مع الواقع، ضعف الفعل

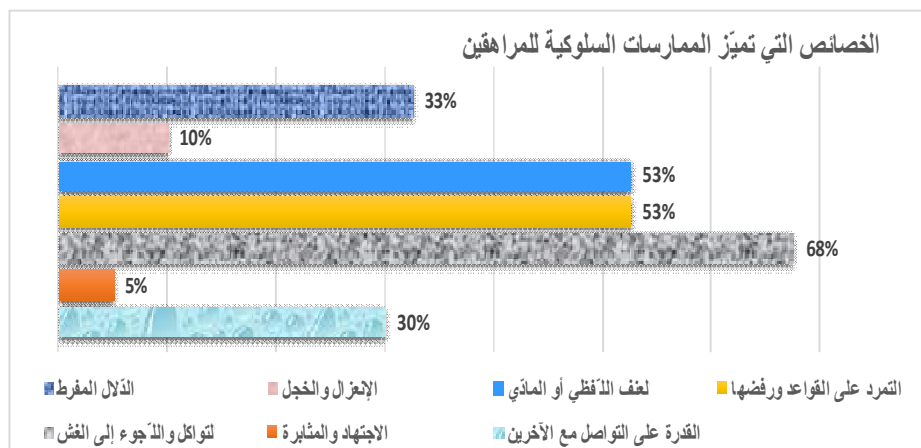
التربوي وتضائل القيمة الرمزية للمؤسسة التربوية كقيمة اجتماعية قادرة على رفع المتعلم في السلم الاجتماعي."

3- تملّات الإطار التربوي لمعيش التلميذ المراهق وللفضاء المدرسي

1-3 الممارسات السلوكية للتلميذ المراهق كما تمثّلها الإطار التربوي

لم يعد متغير الجنس عنصراً أساسياً في تفسير سلوكيات التلاميذ المراهقين الرافضة للتقيد بالقواعد المنظمة للحياة المدرسية بحسب افادة الإطار التربوي. ونلاحظ أن خاصية التواكل واللجوء الى الغش هي الأكثر هيمنة على الممارسات السلوكية للمراهقين بحسب (68%) من الإجابات، تليها خاصية العنف اللفظي أو المادي والتمرد على القواعد ورفضها بنسب متساوية من إجابات الإطار التربوي بلغت (53%) لكل خاصية منهما. هذا إضافة الى تميز سلوكيات التلاميذ المراهقين باللال المفرط بحسب (33%) من أجوبة الإطار التربوي في حين اقر (30%) منهم بقدرة المراهق على التواصل مع الآخرين مقابل إقرار خاصية الانعزال والخجل لدى المراهق بنسبة (10%) لما أضرف الخصائص المميزة لممارسات المراهقين فهي خاصية الاجتهاد والمثابرة بنسبة (5%). وبالإضافة الى ذلك، فإن الممارسات السلوكية للتلاميذ المراهقين تعكس حالة من " اللامبالاة والتبدل وغياب الهدف والطموح." كما تنم عن "حالة من الضياع والاستهتار وقلة الانضباط."

رسم بياني عدد:(05)

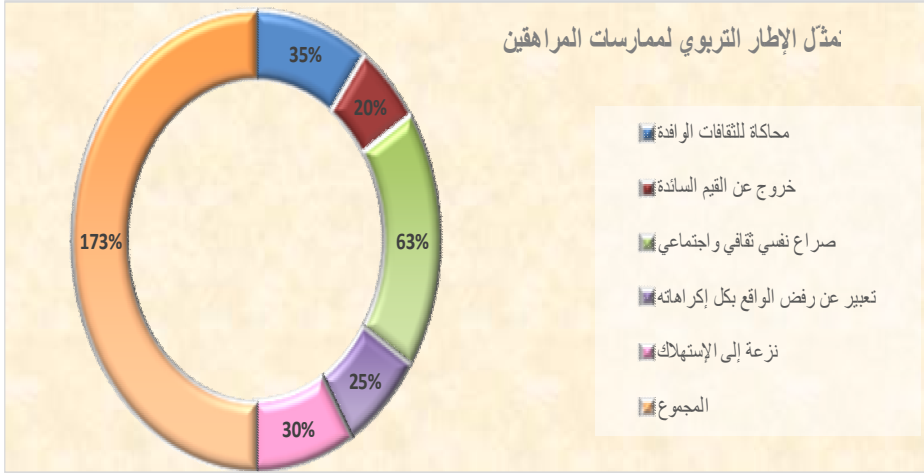


المصدر: الدراسة الميدانية.

وفي السياق نفسه يعتبر الإطار التربوي أن ممارسات المراهقين: اللباس، الزينة، طريقة التخاطب، ... هي مظهر من مظاهر الصراع النفسي الثقافي والاجتماعي بنسبة (63%) كما تدل أيضا على محاكاة للثقافات الوافدة بنسبة (35%) وعلى نزعة استهلاكية بنسبة (30%). وفي المقابل اعتبر (25%) من الإطار التربوي أن هذه الممارسات تعكس تعبير المراهق على رفض الواقع بكل اكرهاته كما تعبر عن خروجه عن القيم السائدة بنسبة (20%). تؤكد هذه النتائج أنما "أصبحنا نعيش في مجتمع الاستهلاك بوصفه نظاما من العلامات، علامات تحل محل الأشياء، علامات يتميز من خلالها البشر ويختلفون من خلال قدراتهم على الشراء والاستهلاك" (Baudrillard Jean, 1970: 60) ويرى فيها المراهقون المتمردون مساحة لممارسة خياراتهم الذاتية والحال أنهم يعيدون دون وعي منهم إنتاج خيارات اقتصادية وثقافية تحددها مسبقا القوى المهيمنة ضمن سياقات عالمية تستهدف تنميط المجتمعات والثقافات والسيطرة عليها من خلال ممارسة عنف رمزي هادئ ولطيف يمر عبر هياكل ووسائط تكنولوجية وإعلامية سريعة التطور تساهم بشكل

عميق في "صناعة الوعي البائس، التي تقيم حاجزا سميكا بين الانسان وأسباب حرمانه،... فالبؤس لا يخلق تمردا، لأن الوعي بالبؤس هو المدخل إلى التمرد." (بورديو بيير، محمد صبح، 2010: 09).

رسم بياني عدد: (06)



المصدر: الدراسة الميدانية.

2-3 المناخ المدرسي كمكون أساسي للفعل التربوي والتدريسي

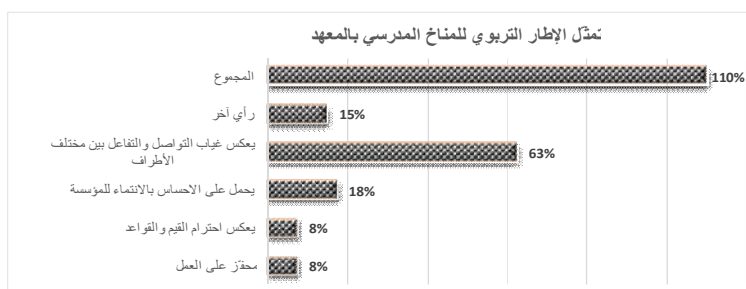
نحن كنا ولا زلنا ننتظر الكثير من المدرسة وفي الحقيقة فإنه من الصعب وجود مشكل أو قضية مجتمعية دون أن يكون للمدرسة دور تلعبه، فالمدرسة ركيزة أساسية لبناء المجتمع وإعادة انتاج أنماطه الثقافية وموروثه التاريخي وهي أيضا معنية برفع وعي كل تلميذ بتحديات وقضايا المواطنة وإعداده ليكون عنصرا فاعلا في المجتمع، فالمدرسة تمثل قاعدة ضمان التماسك الاجتماعي والعيش المشترك بين مختلف الشرائح الاجتماعية. (Ly Son Thierry, 2016: 28) وهذا يجربنا إلى الحديث

عن مناخ مدرسي قادر على توليد تفاولات إيجابية ومساعد على التعلم وعلى الخلق والابداع والتميز لكل المتداخلين في الشأن المدرسي والتربوي.

وقد تبين لنا من خلال محاولة رصد تمظهرات العلاقة بين المراهق والإطار التربوي من أساتذة وإطار مسير هيمنة اللامبالاة على طبيعة هذه العلاقات، بل إن هذه العلاقة "متوترة جدا وهي في حاجة أكيدة للمراجعة والبحث عن الحلول من طرف الجهات ذات الاختصاص البيداغوجي والنفسي". ولذلك لا بد من "خلق فضاء للتواصل والحوار بين التلميذ والمربي والأسرة وخاصة الاستماع الى التلميذ المراهق حتى يتم تأطيره قدر الإمكان"

ونلاحظ أن غياب التواصل والتفاعل بين مختلف الأطراف هو السمة المهيمنة على المناخ المدرسي بنسبة (63%) مقابل (18%) تحيل على أن المناخ المدرسي يحمل على الإحساس بالانتماء للمؤسسة، كما تؤكد نسبة (8%) من الاجابات ان المناخ المدرسي محفز على العمل ويعكس احترام القيم والقواعد بنسبة (8%)، وللإطار التربوي في هذا الشأن رأي آخر بنسبة (15%).

رسم بياني عدد: (07)



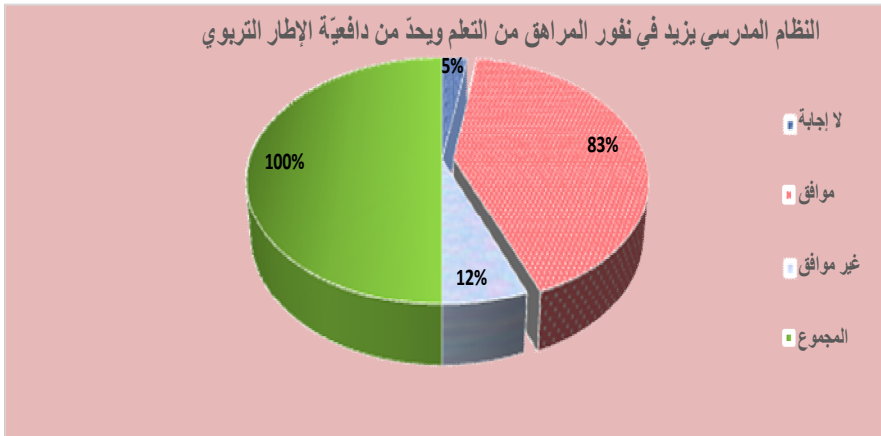
المصدر: الدراسة الميدانية.

يمكن القول إن "المنظومة التعليمية والبيداغوجية المعتمدة لم تواكب التحولات الاجتماعية والثقافية التي عرفها المجتمع وهي في حاجة أكيدة للمراجعة

والتدعيم خاصة على مستوى الموارد المادية والتقنية والبشرية. " كما ان "مستوى الخدمات التعليمية والتربوية بالفضاء المدرسي دون المطلوب " وبالتالي فلن هذه الخدمات "تحتاج الى مزيد الدعم من وسائل حديثة وقاعات اختصاص للأنشطة الثقافية والرياضية ومكاتب اصغاء للمراهقين."

ويتفق (83%) من افراد عينة الإطار التربوي مع القول بأن النظام المدرسي يزيد في نفور المراهق من التعلم ويحد من دافعية الإطار التربوي ولذلك لا بد من تغييره وبالمقابل أبدى (12%) منهم عدم موافقة على هذا الامر في حين اكتفى (5%) منهم بعدم الإجابة.

رسم بياني عدد:(08)



المصدر: الدراسة الميدانية.

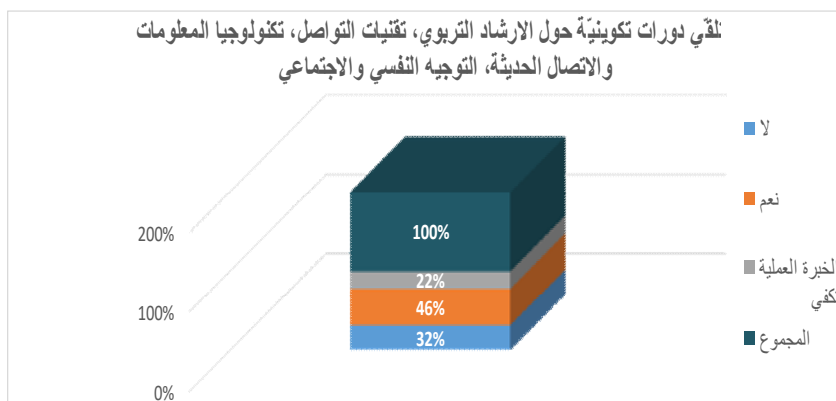
3-3 المنظومة التعليمية والتكامل في الأدوار بين مختلف الفاعلين

إن عدم وضوح مقاييس انتداب المدرسين خاصة بعد ثورة 14 جانفي 2011. "قد اثر فعليا على جودة الأداء التربوي وبالتالي على مكتسبات التلاميذ. خاصة في ضوء انعدام المهارات البيداغوجية والتواصلية الضرورية للتعامل مع التلاميذ ذوي الوضعيات الخصوصية." (وزارة التربية، 2016: 53) هذا إضافة الى الضعف المسجل على مستوى تأطير وتوجيه المدرسين المباشرين بالمعاهد ومحدودية حلقات او دورات

التكوين المستمر وقد أدى ذلك إلى " غياب الحرفية وفتور الدافعية والحماس عند بعض المدرسين." (وزارة التربية، 2016: 53) وعلاوة على المدرسين، فلن بقية الأطراف الفاعلة في المؤسسة التعليمية –إطار تسيير وإشراف وإرشاد...- " بحاجة أكيدة إلى تنمية قدراتها وتعزيز كفاءتها خاصة وهي مدعوة للتعامل مع شريحة حساسة من الأطفال والمراهقين." (وزارة التربية، 2016: 54)

وبقن نتائج الدراسة الميدانية لن (46%) من أفراد عينة الإطار التربوي تلقوا دورات تكوينية حول الارشاد التربوي، تقنيات التواصل، تكنولوجيا المعلومات والاتصال الحديثة والتوجيه النفسي والاجتماعي في حين لم تشمل هذه الدورات التكوينية (32%) منهم وبالمقابل اعتبر (22%) منهم أن الخبرة العملية تكفي.

رسم بياني عدد: (09)

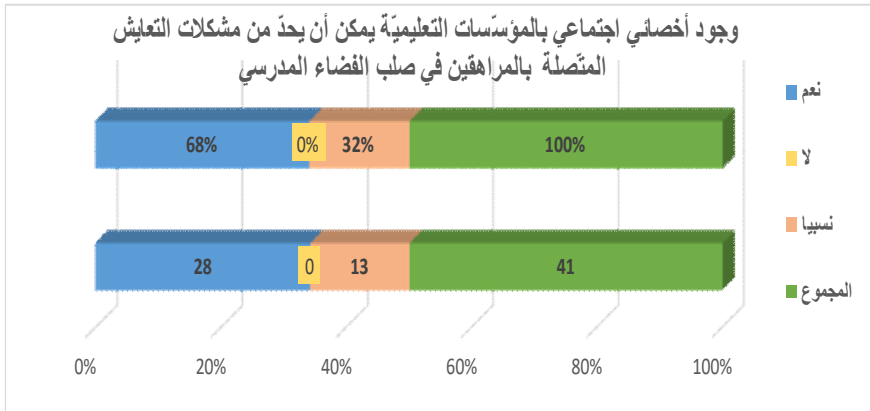


المصدر: الدراسة الميدانية.

" يحتاج التلميذ المراهق اليوم الى الإحاطة النفسية والتأطير التربوي في الاسرة وداخل المؤسسة التعليمية وتحفيزه ودعمه لبناء شخصية سليمة" ذلك ان المراهق المتمدرس "قادر على خلق الاستراتيجيات في حال توفرت له مجموعة من الظروف المادية والمعنوية والبيداغوجية."

وفي هذا السياق تتأق أهمية وجود اخصائي اجتماعي بالمؤسسات التعليمية من كونه يمكن ان يحد من مشكلات التعايش المتصلة بالمراهقين صلب الفضاء المدرسي وهذا ماأكده (68%) من افراد عينة الإطار التربوي مقابل اعتبار هذا الدور النّي يمكن ان يقوم به الاخصائي الاجتماعي يبقى نسبيا بحسب (32%) من الافادات مقابل عدم نفي اي من المستجوبين لأهمية دور الوساطة النّي يمكن ان يضطلع به الاخصائي الاجتماعي ولكنه يتكامل ضرورة مع بقية الفاعلين في هذا الشأن: الاخصائي النفسي، المؤطر البيداغوجي...والأسرة بالأساس.

رسم بياني عدد:(10)



المصدر: الدراسة الميدانية.

وبناء على نتائج الدراسة الميدانية، يمكن ان نستنتج ان الأنماط التربوية التي يجسمها النظام التعليمي خاصة من خلال النظام للتأديبي والبيداغوجي ومختلف القواعد المنظمة للحياة المدرسية لم تعد تتماشى مع الخصائص السوسيو-ثقافية للمجتمع كما أن هذه الأنماط لا تتكامل مع الأنماط التربوية الاسرية ولا تسمح للتلميذ المراهق بالتعايش السليم وتحقيق الذات وتجاوز الصعوبات. وبالتالي فلن " سلطة الاشراف اليوم مطالبة بالعمل على تطوير المنظومة التربوية وتشريك جميع

الأطراف من خبراء واهصائيين وأولياء للخروج من ازمة التعليم ورتابة البرامج والزمن المدرسي وتوتر العلاقة بين المراهق والفضاء المدرسي".

كما يمكن القول بأن القواعد المنظمة للحياة المدرسية هي الخيط الرابط بين مختلف الأطراف ذات العلاقة من تلاميذ وإطار تربوي وأولياء، حيث تمثل الحياة المدرسية "كل المعيش المدرسي وتشكل من ائتلاف العوامل الزمانية والمكانية، والتنظيمية، والعلائقية، والتواصلية، والثقافية، والتنشيطية المؤمنة للخدمات التربوية التي تسديها المدرسة للتلاميذ." (وزارة التربية والتكوين، 2009: 15). وبناء على ذلك تكون الحياة المدرسية "امتدادا طبيعيا للتعلّيمات وإطار لتنمية شخصية المتعلم ومواهبه علاوة على التمرس بالعيش الجماعي." (الرائد الرسمي للجمهورية التونسية، 2002).

وبالتالي، "لا بد من مراجعة عميقة للمنظومة التربوية برمتها فيما اضل بالمناهج والبرامج والبنية التحتية والزمن المدرسي الذي لا يتواءم مع الزمن الاجتماعي والبعد العلائقي والتواصل في علاقة بالتلميذ مع التأكيد على ضرورة إعادة النظر في علاقة الولي بالمدرسة من خلال إيجاد مقاربة تشاركية بين المدرسة والأولياء."

خاتمة

ان بناء العدالة المجتمعية وتحقيق التوازن الاجتماعي والنفسي لأفراد المجتمع، يبدأ بالضرورة من " تفعيل دوري المدرسة والأسرة من خلال إمدادهما بسبل القوة والاستمرارية حتى تواجهها مشاكل الناشئة القديمة منها والجديدة. فليس بالأمر الهين التعامل مع الشباب، فكثيرة هي السياسات العمومية التي أرادت تأطير الشباب، فإذا بها تفشل وتخسر رهان التأطير على أهميته." (وناس المنصف، 2018: 16)

ويمكن القول، ان مؤسستي الأسرة والمدرسة التونسية تعيشان، اليوم، وضعا مأزيميا. فالأسرة مستنزفة نفسيا واجتماعيا بفعل ثنائية العمل على إنجاح الاستثمار الدراسي للأبناء والمحافظة على التوازن المالي للأسرة. فهي عائلات مديونة في أغلبها، متهاكة نفسيا جراء الضغوطات الاقتصادية ولكن أيضا جراء طغيان ثقافة مجتمعية استهلاكية مدعومة بمشهد افتراضي يعمل، بتسارع شديد، على تشكيل الممارسات الثقافية والاجتماعية خاصة في صفوف المراهقين. وتكمن الإشكالية هنا فيما تروجه هذه الوسائط الثقافية بتقنياتها الحديثة سريعة التطور، "من أشكال ثقافية" منمطة و"معلبة"، مجتقة من أصولها الاجتماعية، تدعو إلى الاستهلاك دون أن تفسح المجال للتفكير فيها، وفهم معانيها الكامنة." (الجموسي جوهري، 2006: 184)

ان ما يعمق مأزمية الفضاء المدرسي التونسي هو عجزه عن الانفتاح ومواكبة هذه الثقافة التي "تكتسح يوما بعد يوم ليس فقط الجغرافيا التونسية، ولكن الأهم من كل ذلك المعيش اليومي بكل خصائصه وتعقيداته. وليس أدل على ذلك من هذا التبخيس المتعمد لقيمة المدرسة والعملية التعليمية." (وناس المنصف، 2010: 231) وأيضا هذا التعارض والتنافر بين القواعد المنظمة للحياة المدرسية وبين الممارسات السلوكية للتلميذ المراهق، الأمر الذي يضع المنظومة التربوية والتعليمية أمام واقع عجزها على الإحاطة والتأطير وتهيئة فضاء مدرسي جاذب للمتعلم.

وبالتالي، لا بد أن نعي تماما بأن موضوع التعليم لا ينحصر في تلقين التلميذ حزمة من المعارف التي تتراكم بصفة دائمة ومكثفة وإنما هو "بناء حالة داخلية عميقة لديه، ونوع من استقطابية الروح تقوده نحو وجهة محددة ليس في مرحلة

الطولة فقط وإنما طوال الحياة" (دوركهيم ايميل، 1890:38). ذلك لأن مراكمة المعارف فقط لا تسمح للفرد بتعلم سبل العيش " وإنما يتطلب فوق ذلك تحويل المعرفة المكتسبة الى حكمة في داخل كينونة التلميذ الذهنية ودمج هذه الحكمة طوال حياته." (موران إدغار، وناس المنصف، 2020: 59-60).

المراجع العربية

- بن سالم بلقاسم، " التعليم والتغير الاجتماعي: قراءة في مشروع المدرسة الأساسية والإصلاح الأخير"، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، عدد 113، تونس.
- وناس المنصف، (2015) محاضرة عامة: علم اجتماع الثقافة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية 09 أفريل، تونس.
- وناس المنصف (2010)، الشخصية التونسية: محاولة في فهم الشخصية العربية، الدار المتوسطة للنشر، تونس.
- الجموسي جوه (2006). الثقافة الافتراضية، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنن الرسم، تونس.
- موران إدغار، ترجمة: وناس المنصف (2020)، العقل المحكم: إعادة التفكير في الإصلاح وإصلاح التفكير، معهد تونس للترجمة، تونس.
- غدنز انتوني، (2005)، ترجمة فايز الصباغ، علم الاجتماع، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.
- عبد الغني عماد، (2006)، سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والاشكاليات من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- أنصار بيار، (1992)، ترجمة نخلة فريفر، العلوم الاجتماعية المعاصرة، الدار البيضاء بيروت: المركز الثقافي العربي.
- تشيرتون ميل، براون آن، (2012)، ترجمة الجوهري هناء، علم الاجتماع: النظرية والمنهج، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- وزارة التربية، (2016)، المخطط الاستراتيجي القطاعي التربوي 2016-2020، تونس.
- وزارة التربية والتكوين بالتعاون مع اليونيسيف، (2009)، الحياة المدرسية: وثيقة إرشادية، تونس.
- الرائد الرسمي للجمهورية التونسية، القانون التوجيهي عدد 80 لسنة 2002 مؤرخ في 23 جويلية 2002 يتعلق بالتربية والتعليم المدرسي، الفصل 49.

- منظمة الصحة العالمية، صحة الأم والوليد والأطفال المراهقين، www.who.int/topics/adolescence ، تاريخ الاطلاع، 2018/07/90.
- بورديو بيير، (2010)، ترجمة محمد صبح، **بؤس العالم: رغبة الإصلاح**، الجزء 1، دار كنعان، طبعة خاصة.
- وناس المنصف (2018) ، محاضرة حول المناهج الكيفية، ندوة تكوينية: أهمية المنهجية في العلوم الاجتماعية، CERES، تونس.

المراجع الفرنسية

- Dubet François, Martuccelli Danilo (1996), *A l'école : sociologie de l'expérience scolaire*, Paris, Editions du seuil.
- Boudon Raymond (1980), *Les méthodes en sociologie*, Paris, P.U.F.
- Bourdieu Pierre (1984), *Questions de sociologie*, Paris, éd. Minuit.
- Baudrillard Jean (1970), *La société de consommation : ses mythes, ses structures*, Paris, éd. Denoël.
- Ly Son Thierry (2016), « Quelle école voulons- nous ? », Numéro spécial, Sciences Humaines, n° 285, Octobre, 2016.